منهجية وتقنية البحث التاريخي 2 السداسي: الرابع
الوحدة: وحدات التعليم المنهجية
المادة: منهجية وتقنية البحث التاريخي 2

المحاضرة 1

أولا-الحقيقة والموضوعية في التاريخ:

1.الحقيقة التاريخية:

إنّ الحقيقة التاريخية التي يطمح المؤرخ الى الوصول اليها ليست بأي حال من الأحوال حقيقة مطلقة وإنّما هي نسبية، لأنّ ما نصل إليه في بحثنا من تصوّر أحداث الماضي هو في الواقع حقيقة صحيحة نسبيّا، إذ كلّما زادت نسبة الصّدق فيها اقترب التاريخ من أن يصبح تاريخا بالمعنى الصحيح في حدود إمكانياته، ومرد ذلك إلى أنّ الحادثة التاريخية هي حادثة ماضية لا نستطيع ملاحظتها في الحاضر و إن كان باستطاعتنا أن نرى آثارها الباقية و أن نطّلع على تدوينها من مصادر الماضي.

إنّ الحادثة التاريخية هي في حدّ ذاتها فردية ذات طابع خاص جرت في زمن معيّن ومحدد وعبّرت عن تصرفات أناس معينين، ممّا يتعذّر علينا تعميمها، ممّا يتوجّب دراستها في تفرّدها وطابعها الخاص، فضلا عن أنّها- أيضا- حالة لا تتكرر لأنّ الزّمن الماضي لا يعود والذين شاركوا فيها لا يرجعون، ومن ثمة فإنّ التجربة التاريخية غير ممكنة. وحتى أنّ الالتجاء إلى الإحصاء أو تلمس أوجه التشابه أو التواتر بين الحوادث كما هو معمول به في علم النّفس وعلم الاجتماع غير ممكن أيضا، هذا دون أن ننسى أنّ الحادثة التاريخية رغم تحديدها بزمن ومكان وشروط إنسانية معيّنة فإنّ أسبابها البعيدة وبدايتها لا يمكن أن نتبينها بكل وضوح ودقّة، كما لا نستطيع أن نحدد نتائجها اللاحقة، و أحسن مثال على ذلك انتشار المسيحية وظهور الاسلام.

2-الموضوعية التاريخية:

إنّ الحادثة التاريخية في نظر العلم ظاهرة موضوعية لا نستطيع دراستها إلّا إذا بعثت كما هي على حقيقتها وهذا شيء مستحيل بالنسبة إلى ما مضى من الأحداث، وبالتالي فإنّ أغراض الدراسة التاريخية هو بعث الماضي في صورته الحقيقية كما نتصوره لا كما وقع بالفعل، أي البحث عن الحقيقة الممكنة وليس كل الحقيقة، وهو ما يجعل كل ما نتوصل إليه من دقائق تاريخية تصوّرا شخصيّا للماضي لأنّ الحادث مهما خضع لمواصفات المنهجية وتقيّد بطرقها لا يمكن إعادته كما وقع و إنّما نعيد تصوّره من خلال فهمنا للماضي انطلاقا من ثقافتنا و ميولنا و موقفنا من الأحداث.

وهذا ما يجعل التاريخ وإن كان يستمد خطوطه العامة من أحداث وقعت بالفعل، يتمّ من خلال ذات المؤرّخ أراد ذلك أم لم يرد، الأمر الذي يجعل الموضوعية المطلقة في التاريخ بدورها متعذّرة إن لم تكن مستحيلة.

3.مواصفات و مؤهلات الباحث:

إنّ كلّا من مفهوم الحقيقة التاريخية والنظرة الموضوعية يتأثر بل يخضع لمؤهلات ومواصفات المؤرّخ التي تتحكّم إلى حدّ كبير في تقييمه لأحداث التاريخ وحكمه عليها. إذ يفترض أن يكون للباحث مؤهلات شخصية وظروف موضوعية تمكّنه من تقييم الحقيقة التاريخية النسبية والتزام الموضوعية حسب الشروط و الظّروف التي يعيشها و التي تطبع عمله، ومن أهمّ هذه المؤهلات و المواصفات الاستعداد النفسي لانجاز العمل، و التّحلّي بالصبر و المثابرة حتى يتغلّب على الصعوبات و العقبات التي تعترضه في بحثه، و أن يتّصف بالأمانة و النّزاهة و الإخلاص و عدم التحيز مع التجرّد من ميول الشخصية، وأن يتوخى في كل ذلك الحقيقة التاريخية في إطار المعلومات التي بحوزته سواء في عرض الأحداث أو الحكم عليها.

إنّ الباحث بمثابة القاضي الذي يعدل في أحكامه كلّما ابتعد عن التحيّز والهوى والتزم الحياد إزاء الآراء والمواقف المتعارضة قبل بحثها، وتتجلى نزاهة الباحث في تجنّبه للكذب وتزوير الأحداث والنّأي بنفسه عن التملق لأصحاب الجاه والسلطان، والزّهد في الشهرة والظهور وعدم السّماح لنفسه باستغلال جهود الآخرين وسرقة نتاج بحوثهم. كما أنّ أصالة الباحث تقوم أساسا على قدرته على إنجاز البحث من خلال مصادره الأساسية بحيث يكون الباحث ملما بلغة المصادر الأصلية لموضوعه، قادرا على الانتفاع بها لأن الترجمة والاعتماد على الغير لا يقدمان حلّا ولا يؤديان إلى نتيجة ملموسة للبحث، ولعلّ أحسن الطرق لإنجاز العمل التاريخي هو عدم تشتيت الجهد هنا وهناك، بل لا بد من التفرّغ للبحث وتكريس الجهد فيما يتّصل به فعلا، فلا يحاول الباحث التسرّع في عمله او اختصاره أو العجلة فيه لنيل منفعة آنية أو للحصول على لقب علمي، لأنّ الحقيقة العلمية التي يتوصل إليها وقيمة العمل المنهجي تفوق كل ألوان الكسب وصنوف الرتب و الألقاب.

إنّ هذه المواصفات وحدها لا تكفي، بل يجب على الباحث أن تكون له مؤهلات شخصيّة في البحث بحيث يمتلك موهبة وإحساسا و خيالا بالقدر الذي يتيح له أن يدرك آراء الغير ونوازعهم و يفهم بقدر المستطاع الدوافع التي حرّكت الشخصيات التاريخية لاتخاذ موقف محدّد أو انتهاج مسلك معيّن. فضلا عن ضرورة توفّر الرّوح النقدية لدى الباحث فلا يتأثّر بالمسلمات المتواترة ولا يصدّق الأحداث بغير فحص و استقصاء، لأنّ المؤرّخ الذي لا ينتهج طريق النّقد يصبح مجرّد مسجّل وراو للأخبار، فالروح النقدية عامل أساسي في أيّ عمل تاريخي ذي قيمة علمية، وبافتقار هذا الحسّ النّقديّ لا يمكن للباحث أن يكتشف أخطاءه ويضبط آراءه ويتقبّل أحكام وانتقادات الآخرين، كما لا تتوفر له النظرة الثاقبة التي تسمح له برؤية جوانب الضعف في عمله وقصور تصوّره. كما أن الباحث بدون هذا الحس النقدي تنعدم النظرة التحليلية والدقّة في الوصف لديه، لأنه لا يستعمل العقل الواعي المرتب والمنظّم في عرض الحقائق وجمع الأخبار واستخلاص النتائج وتحديد العلاقة بين الحوادث في الزمان والمكان.

المحاضرة2

ثانيا: اختيار الموضوع وضبط الخطة:

1- اختيار الموضوع:

يتم اختيار الموضوع بدافع الرغبة الشخصية بحيث لا يفرض فرضا من شخص آخر سواء الأستاذ الموجه أو النّاشر أو المحرّر. وحتّى يكون الاختيار موفقا فإنّه يتوجب على صاحب البحث أن يطرح على نفسه بعض الأسئلة التّي تساعده على تحديد الموضوع وضبط جوانبه، بحيث تشمل هذه الأسئلة أبعاد الموضوع من حيث الزمان والمكان والنّوعيّة والاهتمام، والسؤال الأول ينطلق من أرضية البحث ويدور حول نقطة الاستفهام: أين؟ والثّاني يتعلّق بالمجموعة البشرية التي تريد الباحث أن يتعرّف عليها في بحثه ويستعمل فيها لفظ الاستفهام: من؟ والسؤال الثالث يحدد حقبة البحث ويكون الاستفهام فيه بلفظ: متى؟ والسؤال الرابع يبرز النّشاط البشري الذي يهم الباحث أكثر من غيره ويستعمل فيه لفظ: أي؟.

من خلال هذه الأسئلة تتحدد أبعاد الموضوع، وعلى الباحث أن يوضح المجال التاريخي المتوخى جغرافيا وزمنيا وبشريا ونوعيا. مع الاعتماد على عامل الخبرة والتجربة الشخصية الذي يلعب دورا كبيرا في عملية الاختيار. إذ يمكن للباحث أن يعدّل من أبعاد موضوع دراسته حسب اهتماماته وطبيعة المادّة المتوقرة لديه والغرض الذي يسعى إليه. وله يضيق من دائرة بحثه إذا كانت المعلومات والمصادر التي تعالجه كثيرة ومتنوعة، بحيث يصعب عليه الإلمام بالأبحاث والتعرف على الحقائق لتعذر الإحاطة بالمعلومات التي تتضمنها مصادره. كما تساعده خبرته كذلك على توسيع إطار بحثه في أحد الاتجاهات الأربعة التي سبقت الإشارة إليها، لا سيما إذا كانت مصادر البحث شحيحة ومعلوماته نادرة. لأنّه في حالة بقاء البحث محدّدا من حيث الزمان والمكان والنوعية والاهتمام يصبح-والحالة هذه- من الصعب على الباحث توفير المادة الضرورية وإيجاد المعلومات التي تساعده على انجاز بحثه.

من الضروري عند اختيار البحث وتحديد موضوعه التمييز بين المبتدئ في دراسة التاريخ وبين المتخصص فيه، فالباحث المختص في التاريخ أو الذي له دراية بالدراسات التاريخية ذات الطابع الأكاديمي، يفترض أن يقوم بحثه على وثائق متخصصة ومصادر جديدة لم تستخدم بعد، وتتناول دراسة الحوادث الصغيرة، وتهتم بالمعلومات المتصلة بدقائق الموضوع وببواطن الأشياء التي تتلاءم وسعة معلوماته وتبرز قدرته على الإجادة في البحث. بينما الباحث المبتدئ من المناسب له أن ينصب اهتمامه على قضايا معينة غالبا ماتكون معلوماتها متوفرة وأحداثها معروفة، ومصادرها قريبة المنال إلى حد ما، بحيث لا تكون نادرة أو باهظة التكاليف أو في حوزة أفراد يضنون بها، أو توجد ضمن المحفوظات الحكومية (الأرشيفات) التي لا يسمح بالاطلاع عليها لسبب أو لآخر. كما يحبذ أن يبتعد الباحث المبتدئ عن المواضيع التي تعتمد على مصادر الشفوية.

يجب على الباحث الذي تحدوه الآمال العراض ويدفعه الطموح الجامح في الكتابة التاريخية أن يتجنّب في أولى خطواته بعض المزالق والأخطاء التي يسهل الوقوع فيها. وقد تتسبب في إخفاقه في عمله. فعليه أن يبتعد عن المواضيع التي تكون في غاية التخصص والمحلية، لأن ارتباطه في بداياته بمثل هذه المواضيع قد يحد من قدرته على التصور

والتخيل وربط الأحداث ووضعها في إطار السياق العام للتاريخ. كما يجب على الباحث المبتدئ أن يتجنّب دراسة المشكلات المجردة في التاريخ والتي ترتكز على التنظير وتعتمد على المفاهيم الفلسفية غير المحددة لنوعية العلاقات الاجتماعية والثقافية وغيرها. لأن مثل هذه القضايا يصعب فيها عليه التوصل إلى نتائج محددة و أحكام مسلم بها.

وعلى الباحث المبتدئ أيضا أن يتحقق من البحث الذي وقع عليه اختياره بحيث لا يكون موضوع دراسة سابقة. ولم يتطرق باحثون آخرون إلى بعض جوانبه، وأن يحرص على أن يكون موضوع بحثه بمثابة دراسة جديدة لم تسبق معالجتها أو على الأقلّ لم يتناولها غيره بطريقة التي ينوي اتباعها، ومن الأحسن في هذا المجال أن ينتفع الباحث المبتدئ بخبرة أساتذته أو ذوي المعرفة، بحيث يسترشد بتوجيهاتهم وينتفع بملاحظاتهم، ويستحسن أن يتصل بمن لهم دراية بموضوعه وأن يعقد صلات من المشرفين على المكتبات للاستفادة من معرفتهم بمضان البحث كالمجلات والدوريات والفهارس، فالعلاقات الانسانية في هذا المجال مساعدة للباحث بل ضرورية لنجاحه في إنجاز بحثه.

ويعتبر الموضوع موفقا إذا توفرت فيه الجاذبية والجدية وطرحت من خلال قضايا تساعد على نمو المدارك التاريخية وتوسيع أفق البحث، بحيث يكون الموضوع من بين اهتمامات الساعة أو من القضايا المهمة أو المسائل التي تثير اهتمام القارئ.

ولا يعتبر البحث جادا إلّا إذا كان الهدف منه إظهار شيء جديد أو تصحيح خطئٍ شائع أو عرض قضايا غامضة أو تبيان أحداث مجهولة وجوانب مهمة من التاريخ، أو إذا ركّز على طرح مشكلات حضارية لها انعكاسات على الأوضاع الحالية، لأنّ تقديم المعرفة التاريخية لا يتم بتكريس المعلومات وجمع المعطيات وعرض الأحداث كرونولوجيّا، وإنّما تكمن في رصد الثوابت والحركات الفكرية التي تحمل روحا مبتكرة. وطرح مشكلات جديدة تساعد على إيضاح الجوانب الحيوية في التاريخ وهي المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية وغيرها.

المحاضرة 3

2.ظبط خطة العمل:

ينطلق الباحث في وضعه لخطّة البحث من العنوان الذي يحدد أبعاد الموضوع، وتساعده على التحكم في الخطة أو التصميم قراءة سريعة وشاملة وتكون في الوقت نفسه عميقة ومركزة، بهدف أخذ فكرة إجمالية تحدد أبعاد الموضوع الزّمانية والمكانية ومواصفتها النوعية والبشرية، سواء منها ما يتعلق بالأحداث المباشرة أو المشكلات المجرّدة، وأن يكون التصميم في أول الأمر في شكل خطة أولية وليست نهائية، بحيث تبقى قابلة للتغيير سواء بالحذف أو الإضافة حسب المادة المتوفرة والنتائج المستخلصة. فلا يتوقف الباحث عند الخطة التي وضعها في البداية، لأنه من غير ممكن أن يرتبط بخطّة لا يستطيع التقيد بها من خلال المادة التاريخية المجموعة.

هذا ويعتمد في وضع الخطة على تبويب الموضوع وتقسيمه إلى أبواب وفصول تسهيلا للدراسة، على أن يخضع هذا التبويب للتحوير بعد التوغل في موضوع البحث وعندما يكتشف الباحث أمورا ومسائل لم يحط بها قبلا. على أن تبقى خطة الباحث في أساسها خاضعة للتبويب التقليدي بحيث تشتمل على مدخل ومتن وخاتمة.

1.2.المقدمة:

يرجع فيه الجزئي إلى الكلي، فيحرص الباحث على ذكر الموضوع الأعم أو الإطار العام الذي يندرج فيه الموضوع، والذي يختلف باختلاف طبيعة الموضوع والهدف من البحث، ويستحسن في هذا المدخل أن يضبط الإطار الزماني والمكاني والنوعي للموضوع، بحيث يحدد فيه الباحث موضوعه من التاريخ العام أو المحلي مكانا وزمانا، موضحا موقف المؤرخين منه ودواعي اختياره والمشاكل التي اعترضته في بحثه والنتائج التي تأمل أن ينتهي إليها، مع الإشارة إلى المنهج المتبع، على أن يكون ذلك مختصرا إذ يستحسن ألّا تتعدى المقدمة في البحث الموسع عادة عشر صفحات.

2.2.المدخل:

3.2.المتن أو نص الموضوع(صلب البحث):

يشتمل على أقسام وفصول متسلسلة حسب توضعها أو ترتيبها الزّمني والنوعي والكمي، وتتفرّع إلى جزئيات أو أحداث أو أفكار رئيسية تتضمن أقسام أو فصول الموضوع، حسب النّقاط التالية:

1. تمهيد في أول كل فصل يوضح الواقع التاريخي عن طريق التحليل والمناقشة وعرض الأدلة والشواهد والتي تسبق تسجيل الحقائق في كل فصل.
2. تحديد المسائل الرئيسية في الفصول، وعرض المشكلات الجزئية التي تتفرع عنها في الفقرات اليت يتألف منها كل فصل.
3. إخضاع السياق التاريخي لأسس منطقية وأفكار مترابطة، فيتقيّد الباحث بالترتيب الزمني والتبويب الموضوعي أو النوعي في آن واحد. فإذا اختار الباحث التقسيم الزمني يجب عليه أن يراعي الترتيب الموضوعي أو النوعي للجزئيات الداخلة في النطاق الزمني. وإذا اختار التقسيم الموضوعي أو النوعي فعليه مراعاة اعتبار الزّمن داخل الموضوع
4. وضع أسئلة استفهامية لكل نقطة في الموضوع توضح الأحداث المحيطة بالقضايا المطروحة أمام الباحث. ولعل أهم هذه الأسئلة ما يتعلق بنوعية الجماعات البشرية والروابط الاجتماعية والعادات المشتركة، وأسس تقسيم العمل النوعي أو الطبقي والعلاقات بين المهن والطبقات الاجتماعية، وتوزيع السلطات وتقسيم الوظائف وتحليل سلوك الأشخاص والجماعات التي ينتمون إليها والعلاقة بين الحاكم والمحكوم، والوسائل التنفيذية والتشريعات المطبقة ونوعيّة التبعية والاستقلال.

4.2.الخاتمة

وهي خلاصة أفكار الباحث حول الموضوع، يتطرّق فيها إلى أهم ما توصل إليه من أفكار واستنتاجات. ويتوخى فيها النقد والتحقيق والموضوعية والتجرّد وعدم التسرّع في التعميم في حدود المعطيات التاريخية. على ألا تكون هذه الخاتمة مجرّد خلاصة للعمل المنجز، ولا تكرارا لما جاء في صلب الموضوع. لأنها ليست خلاصة العمل وإنّما تقييما واستنتاجا له، مع ذكر فرضيات وإثارة تساؤلات لو يتوصل الباحث إلى جواب مقنع عنها أو حل نهائي لها.

ثالثا: التعرف على المصادر:

يتم التعرف على الأحداث بطريقتين أو بالأحرى عبر وسيلتين: الأولى مباشرة، وهي ملاحظة الحادثة كما جرت أساسا، وهذا ميدان الدراسة الاجتماعية الميدانية، والثانية غير مباشرة وهي التي تصلنا عن طريق شخص شاهدها وكتب عنها، وهذا ما يهم التاريخ باعتباره دراسة للماضي.

تدخل ضمن المصادر كل المعلومات والحقائق التي تتصل بأي موضوع يخضع للدراسة والبحث، وقد اعتبر المفكر الانجليزي كولنجوود في كتابه "فكرة التاريخ" (أن أي شيء في العالم يمكن أن يغدو شاهدا على أية مسألة ويعتبر مصدرا تاريخيا، فبدونه لايمكن التوصل إلى استنتاجات أو أحكام، وبانعدامه لا يتأتى لنا رسم صورة للتطورات والأحداث الماضية).

وهذا ما عبر عنه أيضا أسد رستم في كتابه "مصطلح التاريخ" بقوله:" إذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ معها".

يتم التعرف الأولي على مادة البحث بالرجوع إلى المراجع العامة مثل دوائر المعارف وقوائم المراجع (البيبليوغرافيات) والمدونات العامة، والدوريات العلمية، والدوريات العلمية التي تصدرها الهيئات العلمية المختصة، وكذلك بالرجوع إلى الكتب العامة والدراسات الحديثة التي لها صلة بموضوع البحث، وخاصة تلك التي تتوفر على ثبت للمراجع والمصادر.

ومن الأحسن للباحث المبتدئ أن يرجع في بحثه إلى المادة التاريخية المعتمدة على المصادر والتي تتضمنها عادة أهم الموسوعات والمدونات المعرفية وفي مقدمتها:

الموسوعة الكبرى (الفرنسية)	La grande Encyclopédie française
الموسوعة الفرنسية	Encyclopédie française
الموسوعة الإسلامية	Encyclopédie de l’islam
الموسوعة البريطانية	Encyclopédie Britannica
الموسوعة الأمريكية	Encyclopédie Americana
الموسوعة الألمانية	der grosse brokhaus